ديوان الينبـــوع

للدكتور احمد زكى ابو شادى

راقنى ما دبجته يراعة الأديب الحلبى الفاضل (المرتينى) نقدا لديوان (الينبوع) فقد استهله بمقدمة بديعة عن ماهية الفن ، هى من صفوة ما كتب فى هذا الموضوع ، وهى وحدها كافية لاحترام بيانه وللصفح عن زلات نقده .

وكان أول ما أخذه على، اشارتى الى أن الشاعر الالمانى العظيم هنريش هينى (Heinrich Heine) جمع فى شعره بين نفحات القديم وبين النزعة الرومانطيقية التى كان آخر شعرائها فى قومه ، وبين نزعة التحرر العصرى التى ساعد على تكوينها ، وقد أصبحت الصورة الغالبة على الشعر العصرى فى الغرب صورة الرومانطيقية الواقعة (romantic realism)

أتعرف بماذا علق الأديب المرتينى على ملاحظاتى هذه ؟ إنه لم يتعرض لها ولو بكلمة نقدية واحدة وإنما اتخذها تكأة ليقول هذا القول الغريب الذى لاصلة له بموضوعها إذ يعلن : « اننا لانجاريه فى قوله ولانجاريه فى استشهاده بالشاعر الالمانى العظيم ، فبينما يشرح ذلك الألمانى النبيل عواطفه المتدفقة فى نفسه أو يشرح نفسه الواسعة الفياضة بانواع من النظم نرى الدكتور لايرتفع فى شعره عن أن ينظم فى بعض مناسبات خاصة . وفرق كبير جدا بين هذا الشعر الذى يكاد يكون شعرا صحفيا وبين شعر هينى المختلف المتناسق الذى نرى اختلافه فى أغراضه وسعتها ، والذى نراه يتناسق فى الصفات الأولى التى تتصف بها نفس ذلك الشاعر العبقرى ، وكل هذا لاشأن له بتعرض لشعر هينى ولا محل له من النقد المتزن

إن ناقدى الفاضل يشير فى مقدمته الى أن الفن يرسم الشعور الانسانى فى ظروفه العاطفية المختلفة ، وهذه سطور مقدمته بين أيدى القراء ناطقة بذلك ، فكيف يأتى بعد هذا مصغرا فيتعت شعرى بشعر المناسبات وبالشعر الصحفى ؟ ! إن جميع الشعر يامولانا فى أصله شعر مناسبات وبواعث لأنه لايفتعل افتعالا ، وانما سمينا الشعر السطحى الذى لاينتظر له الخلود بشعر المناسبات من باب التجوز إشارة الى أنه يعيش فى حيز مناسبته الوقتية ، ولأنه ليس بالشعر الانسانى العميق ، وشتان بين التعبيرين . . . .

فهل صحيح أن شعرى من هذا الضرب الأخير ، لالسبب إلا لأنه مناسبات بعضه عامة ؟ وهل هذا عذر ينهض للاصغار من روائع الشعر العربى والاوروبى التى خلقت فى مناسبات عامة لاتعنى الشاعر وحده ؟ ! أن مثل هذا النقد لن يقبـــله أى أديب مستقل ، خصوصا وهو نقـــد مبهم لاتعززه الشواهد ، ولا أعرف شيئا يسىء الى النقد أكثر من هذه البراعة فى الابهام ، ومن هذه الاحكام التى لا « حيثيات » لها . . . .

إنى لم أقطع على ناقدى الطريق حين أشرت الى ضرورة التجاوب بين الناقد والشاعر حتى يجىء النقد تفسيراً أدبياً صادقا للشعر ، لانى لاأفهم من النقد أن يكون لونا من ألوان التفور أو التحامل . وقد آخذنى على أشارتى الى أنه ليس محتوما على غير مريدى أن يطلعوا على شعرى حتى أكون معرضا لمؤاخذتهم اياى ، متوهما أنى بذلك أصد الناقدين عن شعرى أو أتعالى عليهم . والواقع انه لايوجد أديب معاصر شجع النقد الأدبى واحترمه أكثر منى شجعته ، ولدى صديق الألمعى صاحب مجلة (الرسالة) آخر مثل يعرفه عن ذلك ، فليطمئن بال الاديب المرتينى ، وليثق بأن كلمتى هذه ليست موجهة الى أمثاله من أفاضل النقاد ، وانما وجهتها الى جيش من المتطفلين على الأدب الذين ينالون ما ينالون من تشجيع فى الصحف العامة ولايتورعون عن أن يقولوا مثل هذا القول : « ان شعر فلان يخصب وجوهنا » فليت القدر يخرسه مادمنا عاجزين عن ذلك ، وهذا بلا نزاع اسفاف فى النقد ، ولكن له سوقه النافقة ، فكلمتى المنطقية الهادئة الموجهة الى هؤلاء الكرام لاغبار عليها .

وتحدث ناقدى الفاضل عن ميولى المتباينة ، ولست أرى تباينا بينها ، مادامت نفسى تؤلف منها وحدة فنية ، ولكل نفس طبيعتها واستعدادها ، كما أنى لست فذا فى هذا : فهناك شواهد كثيرة على تنوع الميول عند أعلام الفكر والادب فى الشرق والغرب ، ولم يكن هذا التنوع مؤديا الى العجز أو التقصير الفنى ، بل كان شاحذا للمواهب الفنية ، دافعا الى الانتاج الناضج الوفير .

وادعى ساعة الله أنى مجدد ملتوى التجديد ، وأنى قد وقفت نفسى على أدب الغرب ، وأنى أحاول فى عسرى أن أضع لنفسى مزاجا خاصا ، وأنى أتمثل لقارئى فيكاد ينفر منى لضعفى فى التعبير وتقصيرى فى التصوير وفقرى فى التفكير . . .

ومثل هذا الانتقاص الذى يقال جزافا أمره سهل لدى كل من يطـــاوعه قلمه على تحبيره ، ولكن الناقد المنصف المدقق يقر بشغفى العظيم بالأدب العربى وخدمتى أياه ، وأن عنايتى بالأدب الأوربى هى عناية الراغب فى إعزاز أدبنا العربى وتبديل فقره غنى ، وسد ما فى مناحيه من فجوات يشعر بها كل مطلع على الآداب العالمية . وليس لمثلى أن يزكى أدبه وإن دافع عنه ، ولكنى أزكى مدرسة أدبية أنا أحد أفرادها ، وقد كتبت من قبل ما يغنى عن الافاضة فى « الرسالة » ، كما يغنينى ما ظهر حديثا فى مجلة « الامام » للشاعر الياس قنصل ، وفى صحيفة « الأهرام » للشاعر سيد قطب ، عن الرد على ذلك الانتقاص المبهم الذى لن تطاوعه الشواهد مهما تلمسها ناقدى الفاضل .

ولكنه قد جاء مما يحسبه شاهدا منحما فى تعليقه العجيب على صورة « الينبوع » (ص ١٧ من الديوان) .... ان ذلك التعليق وتلك الخطرات هى نظراتك أنت يا ناقدى العزيز ، وأما أنا فلا أعرفها بل اشمئز من تعابيرك كل الاشمئزاز . أما نظراتى أنا فنظرات الفطرة السليمة المتسامية التى تأبى التصنع والشذوذ والتدلى ، وتقول فى صراحة :

ياجمال النور فى الظل الحبيب ... ياجمال الروح فى الجسم الرطيب
هذه الدنيا لأحلام الأديب ... هذه غايات آمال الاريب
أيها الينبوع كم ساع اليك ... يدعى بغضا لما أهوى لديك
كل ما يرجوه موقوف عليك ... فاذا الانعام منك واليك !

أنت سحر غامـــض للعالم ... أنت ينبوع الرجاء الدائم
أنت موسيقى الخـــلود الباسم ... أنت ومض للشريد الهائم !

أيها الينبوع يا رمز الابد ... يا شعاع الله فى طيف الجسد
كم معان فيك كادت لا تحـــد ... وعـــزاء عن حياة تفتقد !

إنما أرنو اليك فى خشوعى ... ما ابتسامى غير لون من دموعى
أنا لحن بين أطياف الربيع ... من طيور وغدير وزروع

أنا أحيا حينما أجنى رضاك ... حينما جسمى وروحى عانقاك
حينما لبيت مسحورا نداك ... فاذا بى لا أرى العيش سواك

كل همى فى حياتى يستحيل ... حينما أخشع للفن الأصيل
حينما أروى من النبع النبيل ... ذاك نبع الحب فى الجسم النبيل !

فاذا كان الأديب المرتينى لا يرى فى هذا الشعر الطبيعة الصافية المتسامية فالذنب ليس ذنبى . وما أراه منصفا فى مهاجمة الذوق الفنى لمصور (سكس ايبل) وهو من أعلام فنه ، إنى مصدق صاحبى فى تأكيده أنه قرأ الديوان من الجلد الى الجلد ، ومع ذلك أومن بانه لم يقرأه ، وأومن كذلك بأنه فى ذهنيته ونفسيته الحاضرة لا يحمل ذرة من التجارب مع شاعريتى ، وانما يؤدى به مزاجه الخاص الى النفور منها ومن كل ما يمت اليها بصلة ، ناظراً من وراء منظار أسود شاقه أن يلبسه ، والا فبماذا يفسر تصويره لاحترامى النقد الأدبى وتشجيعى رجاله ، ذلك التصوير الغريب الذى ابتدعه فى قوله : « وما عرفته (يعنى كاتب هذه السطور) وغيره من اخواننا المصريين إلا أباة على النقد يثيرون من أجله المعارك ويتسارعون بسببه الى الخصام والنزاع .... ؟ ! لقد ظهرت فى الاعداد الثلاثة الأخيرة من مجلة (أبولو) تعليقاتى على نقد ديوان (الينبوع) فهل يستطيع حضرة الناقد الفاضل اذا التزم الانصاف أن يجد فيها دليلا واحداً يعزز دعواه هذه التى أنكرها كل الانكار ؟ أما عن لغتى فما أحسب صاحبنا فى المكانة التى تسمح له بذلك النقد ، وقد نقد (الينبوع) فعلا رجال ذوو بصر فنى باللغة ، ومنهم من تخصص فيها كالسيد مصطفى جواد ، فما قالوا الا عكس ماذهب اليه صاحبنا .

وقد تصدى لنقد بيتين من قصيدة (دانيال فى جب أسود) — ص ٥٠ من الديوان — وهى من الاسرائيليات المشهورة التى راقنى تسجيلها شعراً ، فجاء نقده معلنا جهله أو تجاهله لهذه القصة الدينية ، وراح يلوم على مايستحق الثناء من ايجاز أو تركيز فى محله أو بساطة يدعو اليها سياق القصة ، وكأنه أراد بالاقصوصة الشعرية الوجيزة أن تكون تفصيلا خبريا عن الحوادث لا لمحة شعرية من روح الموضوع ... واذا كان شعرى فى حكم العدم كما يريد الأديب المرتينى أن يقول ، فلماذا يشغل نفسه وقراء (الرسالة) بأكثر من ثلاث صفحات نقدية وهو يسلم أن هذا الضرب من الشعر لا تعنى به الا أقلية من الادباء . فهل صحيح أنه فى حكم العدم ؟ !

أن الشواهد التى يسوقها النقاد هى دائما كافية لتعزيزهم أو لخذلانهم ، ولذلك يتهارب النقاد العاثرون من الاتيان بالشواهد ، والأديب المرتينى كان بعيداً جدا عن التوفيق فيما ذكره من شواهد .

من غير تفتيش أو تنقيب على مايقول . . . وحسب القارىء أن ينظر فى هذه الأبيات من قصيدة «العودة» (ص ٣٠ من ديوان الينبوع) وقد وجهتها الى الدكتور زكى مبارك الذى كان يصحبنى فى قطار البحر عائدين من الأسكندرية :

وداعا للرمال وللمنى ... وداعاً للملاحة ياصديق
أتذكر كيف كان الموج يجرى ... كما يجرى الشقيق الى الشقيق ؟
وقفنا فى جوار اليم سكرى ... كسكر الناظرين الى الرحيق
نرى فى البر ألوان التناجى ... وفى البحر المشارف والعميق
كأن الحسن ذاب بكل لون ... نراه ، وفى المياه وفى الطريق !
سكرنا سكرة الحرمان حتى ... كلانا كالأسير وكالطليق
وهذا الجو يملؤه حنان ... ولو أن الغروب من الحريق
وأبنا أوبة المهزوم ، لكن ... بنا طرب من الأدب الحقيق !

فهذه القصيدة التى أعجب بها استاذنا مطران اعجابا عظيما لم تستحق من ناقدنا الفاضل غير السخرية المبهمة التى إن لم تكن سخرية المغرض فهى سخرية المتسرع الذى يهرع الى قلمه قبل أن يتمثل الموضوع الشعرى ويستوعبه الاستيعاب الواجب .

بيد أنى مستعد للايمان بحسن طوية الكاتب الفاضل ، وأؤكد له أن نصائحه هى فى صميم نفسى ، ومع ذلك فرحباً بنصائحه وبغيرته على اللغة ! فول له بعد هذا أن يأخذ نصيحة متواضعة منى مشفوعة برجاء : تلك أن يدرس الطاقة الشعرية عند الشعراء المختلفين فسوف يجدها متباينة ، وأن طبيعة الاجادة الفنية لاشأن لها بانتاج ، بل ربما هفتها كثرته ، وأن الشاعر الملتوى الاسلوب الضعيف البيان السقيم الذوق لايجديه إكثار ولا إقلال . . . وهو وغيره أحرار بعد ذلك فى وضعى فى المكان الذى يرضى نفوسهم ، وأما رجائى فمحصور فى مبدأ أدبى عام يؤمن معه العثار النقدى ويمثله هذا البيت :

كن أنت نفسى واقترن بعواطفى ... تجد المعيب لدى غير معيب

احمد زكى أبوشادى

مصوغات بقشرة ذهب مضمونة خمس سنوات

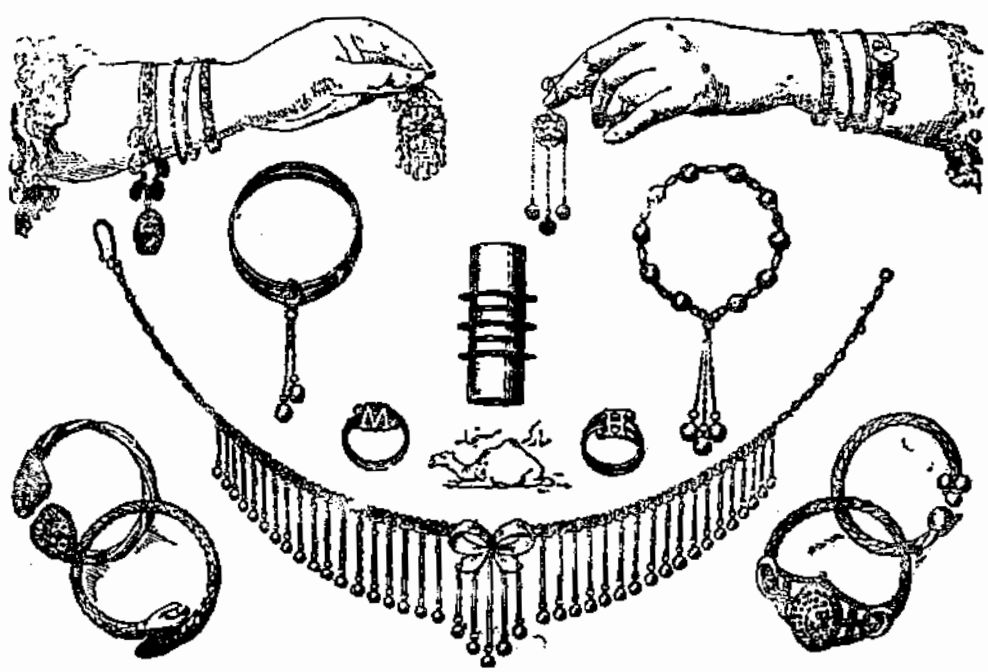

اطلبوا عيناتنا

للسودان . والحبشة
والعراق . واليمن . والشام
والهند . وطرابلس . وتونس
ومراكش . والحجاز
والعجم
وجميع الاقطار الشرقية

شركة مصوغات الجمل المصرية

الادارة : شارع خان أبو طقية بالصاغة تليفون رقم ٥٦٩٨٥ ـ صندوق البوستة رقم ٦٩١ مصر